

المبحث السابع

العدل الإلهي وسنة الله في الجزاء بجنس العمل

من أسماء الله الحسنى «العدل» ولم يأت هذا الاسم في القرآن الكريم وقد جاء في حديث الأسماء الحسنى وأجمعت عليه الأمة ومعناه:

العادل: وهو الذي يصدر منه فعل العدل وهو المضاد للجور والظلم، وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم وإذا آمن العبد بأن الله هو العدل لم يعترض عليه في أحكامه وتدبيره وسائر أفعاله، وافق مراد العبد أو لم يوافق، لأن كل ذلك عدل وهو كما ينبغي وعلى ما ينبغي⁽¹⁾.

فالعدل كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق وهو سبحانه قد أوضح السبل وأرسل الرسل، وأنزل الكتب وأزاح العلل ومكّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول وهذا عدله ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يُعيّنه ويُوفقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله، وخلق بينه وبين نفسه، ولم يُرد

(1) أسماء الله الحسنى د. فاروق حمادة، ص: 128.

سبحانه من نفسه أن يوفقه، فقطع عنه فضله، ولم يحرمه عدله⁽¹⁾.

وقد اتفق أهل الأرض والسموات على أن الله تعالى «عدل» لا يظلم أحداً، حتى أعداءه المشركين الجاحدين لصفات كماله، فإنهم مقرّون له بالعدل، ومُنزهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم مُعترفون بعدله، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [المُلك: 11].

وقال تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَرُشِدُورُكُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ هَذَا قَالُوا سَهَدْنَا عَلَجَ أَنْفُسِنَا وَعَزَّيْنَهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَجَ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 130].

فهو سبحانه . قد حرّم الظلم على نفسه وأخبر أنه لا يُهلك: ﴿الْقُرَىٰ يُظَلِّمِ وَأَهْلَهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: 131].

فأفعال الله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جور أصلاً، فهي كلها بين الفضل والرحمة وبين العدل والحكمة، وما ينزل الله . سبحانه . بالعصاة والمكذابين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة، فإنما فعل بهم ما يستحقونه، فإنه لا يأخذ إلا بذنب ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة، وأقواله كلها عدل، فهو لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ولا ينهاهم إلا عمّا مضرت خالصة أو

(1) جهود الإمام ابن القيم في توحيد أسماء الأسماء والصفات د. وليد محمد عبد الله العلي (2/ 1291).

راجحة وكذلك حكمه بين عباده يوم فصل القضاء ووزنه لأعمالهم لا جور فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَلَيْنَا بِهَا وَكُنْ بِنَا حَسِينًا﴾ [الأنبياء: 47]، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وحكمه (1).

وقال ﷺ: «عدل في قضاؤك» (2). فالله عدل في جميع أقضيته في عبده، قضائه السابق فيه قبل إيجاده، وقضائه فيه المقارن لحياته، وقضائه فيه بعد مماته، وقضائه فيه يوم معاده (3).

وقال الله . على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56].

فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم (4).

فالله يأمر بالعدل ويفعله وهو أعدل العادلين، فما قضى في عبده قضاء إلا هو واقع في محله الذي لا يليق به غيره، إذ هو الحكم العدل الغني الحميد (5).

فالله وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل، فالشرع والقدر

(1) الجزاء من جنس العمل د. سيد حسين العفاني (1/ 33).

(2) صحيح ابن حبان رقم 972.

(3) الجزاء من جنس العمل (1/ 33).

(4) جهود الإمام ابن القيم الجوزية في تقرير الأسماء والصفات (2/ 1292).

(5) الجزاء من جنس العمل (1/ 34).

والخلق والأمر والثواب والعقاب قائم بالعدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115].

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها منازلها، وإنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك، وإنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ولا يمنع من يستحق العطاء وإن كان هو الذي جعله مستحقاً⁽¹⁾.

والله يفعل ما يريد، وحكمه ماض في العبيد، على النهج السديد⁽²⁾.

﴿وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]. وهذا الكمال عدل فإن النفي هنا لإثبات كمال الضد⁽³⁾.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: 44].

- وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَنَا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابِعٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿ [هود: 100-102].

(1) مدارج السالكين (3/ 457-460).

(2) الجزء من جنس العمل (1/ 34).

(3) المصدر نفسه (1/ 34).

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٧) ﴿هُود: 102﴾.

- وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (٥١) ﴿الكهف: 59﴾.

- وقال تعالى في شأن أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا تَسَاءَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجِنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٥) ﴿الأعراف: 165﴾.

- فالله لا يظلم الناس شيئاً في دنياهم وإنما يؤاخذهم بظلمهم، ولا يظلمهم في الآخرة⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤) ﴿يس: 54﴾.

- وقال تعالى في آخر آية نزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليال: ﴿ثُمَّ تَوَفَّيْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].

وقال ﷺ، فيما يرويه عن الله - تبارك وتعالى - أنه قال: «يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»⁽²⁾.

(1) الجزاء من جنس العمل (1 / 35).

(2) مسلم، ك البر والصلة رقم 2577.

وعلى مستوى المعاملات بين الناس جاء الأمر الإلهي بتحري العدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ وَالْبَغْيِ﴾ [التحل: 90].

فالنصوص التي ذكرت في القرآن والسنة للدلالة على تحريم الظلم وتنزيه الله عنه، تقتضي كمال عدله وحكمته وغناه، ووضعه العقوبة والثواب مواضعها⁽¹⁾.

قال الشاعر:

والعدل من أوصافه في فعله ومقاله والحكم في الميزان
فعل الصراط المستقيم إلهنا قولاً وفعلاً ذاك في القرآن⁽²⁾
ومن أكبر مظاهر عدل الله في خلقه في الدنيا والآخرة سنة
الجزاء بجنس العمل وقد تكاثرت النصوص لهذا المعنى، وهذا شرع
الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه، كله قائم بهذا الأصل⁽³⁾.

أولاً: الأصل في العقاب المماثلة:

إن الوعيد والعقاب الإلهي مبني على العدل الإلهي، بحيث تكون العقوبة مكافئة للذنب الواقع ولذلك يصرح القرآن بقوله: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40].

- وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنَةُ فِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194].

(1) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود، ص: 287.

(2) الجزء من جنس العمل (1/ 33).

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 269.

- وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126]، بل قد يتجاوز الله بمشيئته عن أساء يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، ويحرض الله الناس على الصفح عن ظلمهم أو أساء إليهم، فهو يسرع لهم القصاص والمعاملة بالمثل ولكنه في الوقت يدعو إلى العفو والصفح ويوكل أجر فاعلهما عليه سبحانه، زيادة في الإغراء وحثاً على التسامح، فيقول تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40].

- وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126].

والحاصل أن عقاب الله العبد يكون على قدر ذنبه وما ارتكبه، ولذلك ألمحت بعض الآيات بأن جزاء العقوبة هو ما كان يقترفه العبد، قال تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 147].

ويلفظ الخطاب ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 16].

- وقوله: ﴿وَمَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: 39].

وأما في جانب الوعد والثواب فيعامل الله عباده بالفضل والزيادة وإن كانت من جنس العمل الذي فعله العبد، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَمَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17].

- وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

- وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 173].

والقرآن الكريم حافل بالتطبيقات المتنوعة على سنة الجزاء بجنس العمل، ولكن قبل الشروع في هذه النماذج نعرض للآيات القرآنية التي تعد حقائق أصيلة لهذه السنة، ومن الأمثلة على ذلك:

1 - قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: 23].

فالمراد بالبغي هنا ما كان على النفس خاصة بإيرادها موارد التهلكة والزج بها في ركب الندامة الخاسر بالمعصية، وقد يراد به - أيضاً - البغي على الناس، فالناس نفس واحدة، على أن البغاة ومن يرضون منهم البغي يلقون في أنفسهم العقاب والخطاب بـ ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يفيد العموم فيدخل فيه المخاطبون وغيرهم، وفي الآية ذم للبغي في أوجز لفظ، ومعنى ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي وبال البغي عليكم ولا يجنى ثمرته إلا أنتم⁽¹⁾.

وقد دلت الآية على أن البغي يجازى صاحبه عليه في الدنيا والآخرة⁽²⁾، فأما في الآخرة فهو ما دل عليه إنزال أهله الرجوع إلى الله، وإنباؤه إياهم بما كانوا يعملونه وذلك في قوله تعالى في عجز الآية نفسها: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَمْرَجَكُمْ فَنُنِزُّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمراد

(1) تفسير البحر المحيط (5 / 140)، السنن الإلهية مجدي عاشور، ص: 227.

(2) السنن الإلهية مجدي عاشور، ص: 227.

بالإنذار هنا لازمه وهو الجزاء، وأما الدنيا فالشاهد الذي ذكرناه ﴿إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ ويؤيده قول النبي ﷺ: «ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم»⁽¹⁾.

يقول محمد رشيد رضا: فوجود الأعداء والمبغضين ضرب من ضروب العقوبة، وإن لم يستطيعوا إيذاء الباغي لعجز، فكيف إذا قدروا وفعلوا الغالب؟ وأما بغْي الملوك والحكام على الأقسام والشعوب فأهون عقوبته عداوتهم والطعن عليهم، وقد تفضي إلى إغتيال أشخاصهم، أو إلى شل عروشهم والقضاء على حكمهم، إما بثورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرض، أو نوعاً من الكم بنوع آخر، وإما بإغارة دولة قوية على الدولة التي يضعفها البغي، تسلبها استقلالها وتستولي على بلادها⁽²⁾. وتلك هي عدالة الله في تحقيق قانونه في الخلق وجزائهم بجنس ما يعملون⁽³⁾.

2. قال تعالى: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ يُجَدَّ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يُجَدَّ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ إي استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾، أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله. ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم وأنفسهم دون غيرهم⁽⁴⁾.

(1) أخرجه أحمد (5 / 38) صحيح.

(2) تفسير المنار (11 / 344).

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 228.

(4) الجزاء من جنس العمل (1 / 84).

فمن سنن الله ونواميسه في خلقه ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ .

ولهذا قيل: وما ظالم إلا سيلى بظالم .

وقال الشاعر:

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد⁽¹⁾
فما يصيب مكرهم السيئ أحداً إلا أنفسهم وهو يحيط بهم
ويحيق ويحبط أعمالهم، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ينتظرون إذن؟

إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم،
وهو معروف لهم وتمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحد⁽²⁾
﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43] .

3 - قال تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح:

[10] .

ما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابع
من فضل الله والله هو الغني عن العالمين، وبالمقابل فإن العبد هو
الخاسر حتى ينكث وينقض عهده مع الله، فيتعرض لغضبه وعقابه
على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء والأوفياء⁽³⁾ .

وقال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى

(1) التحرير والتنوير (22 / 235).

(2) في ظلال القرآن (5 / 2949).

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 228.

ينزل به: من مكر أو بغى أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾⁽¹⁾.

ثانياً: الجزاء بجنس العمل في الدنيا:

1. الاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا:

- قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرَوْمٍ وَبِدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 14-15].

- قال تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰلسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: 67].

- وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: 79].

هذا من باب المقابلة على سوء ضياعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من يسخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزاء من جنس العمل⁽²⁾.

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 229..

(2) المصدر نفسه، ص: 229.

2. تسليط الظالم على مثله :

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَصِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

﴿[129]: الأنعام: 129﴾ .

وفال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكَبُوا النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: 113] .

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَشْخِذُوا بِالْهُودِ وَالتَّصَدَّىقِ أَوْلِيَاءَهُمْ أَوْلِيَاءَهُ بَعْضٌ وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: 51] .

وفي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَصِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: 129]: تدل الآية على أن الرعية متى كانوا ظالمين فلله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم⁽¹⁾ .

3. استئصال الله لمن أراد إيذاء رسله وأوليائه :

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: 5] .

وقال تعالى عن ظلم فرعون لبني إسرائيل ومحاولته إخراجهم من أرضهم: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة القصص: 123] .

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 234 .

جَنَّا يَكْرِ لِفَيْفَا ﴿١٤﴾ [الإسراء : 103 . 104].

ويقرر القرآن الكريم هذه السنة في آيات أخر قال تعالى :
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَتَسْكُنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٤﴾ [إبراهيم: 13-14].

وقال تعالى: ﴿لَنْ نَرَى بِنَاءَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَارُواوَنَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقِيلُوا تُفْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ [الأحزاب: 60-62].

4. نصر الله منوط بنصرته للدين والحق:

قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21].
وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: 51].
وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الزوم: 47].

وهذا النصر الإلهي مشروط بالإيمان ونصرة دين الله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَتَلَيَّتْ أقدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمّد: 7] ، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: 40].

5. سلب النعمة عن من سلبها مستحقها:

يبين القرآن الكريم أن عقاب الله بالمرصاد لمن منع أحداً شيئاً

يستحقه وأن سنة الله في هذا أن ينقلب مقصود المانع عليه ويعامله الله بنقيض مقصوده، فيأخذ الله ما بين يديه من نعمة ويسلبه ما كان سبباً في التجني على خلقه ويتركه في رماد، والشاهد على ذلك جلياً في قصة أصحاب الجنة التي قصها علينا القرآن للاعتبار والعظة، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَمْحَبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَتَمُوا لَبَضْمَهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ آغِدُوا عَلَيْنَا حُرُوبًا إِنَّكُمْ سَرْمِينِ ﴿٢٢﴾ فَاظْلَمُوا وَهَمَّ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَسَّالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم ، 17 . 27].

فأصحاب الجنة لما عزموا على منع الفقير حقه الذي كفله الله له عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء ثم بين الله أن حكمه هذا سنة جارية في خلقه وقضاء عام لمن وقع في مثله ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات⁽¹⁾.

وبالمقابل فإن الله قد ضمن لمن تعدى بخيره على غيره أن يرزقه من جنس ما أنفقه ويزيده فيه سواء في الدنيا أو في الآخرة، فقال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: 39].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِن خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 241.

تُظَلِّمُونَ ﴿ [البقرة: 272] .

وفي الحديث القدسي: «أنفق أنفق عليك»⁽¹⁾.

6 . تيسير الله لمن يسر على عباده:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَاسَّخُوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْسَخُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] .

وفي قوله ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة، وأعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس، بل المراد منه أيصال الخير إلى المسلم وإدخال السرور في قلبه⁽²⁾.

ويؤكد هذا الموضوع من الشاهد قول النبي ﷺ: «من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»⁽³⁾.

(1) مسلم (2 / 690).

(2) السنن الإلهية مجدي عاشور، ص: 243.

(3) صحيح مسلم (4 / 2074)، السنن الإلهية، ص: 244.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنشُرُوا فَأَنشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] أي: إذا قيل: ارتفعوا وإنما يراد بذلك وإذا قيل قوموا إلى قتال عدو أو صلاة أو عمل خير أو تفرقوا عن رسول الله فقوموا⁽¹⁾، فقد جعل جزاء امتثال أمره في تلك الآية أن رفع درجة أصحابها بالنصر وحسن الذكر في الدنيا وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة، خاصة العلماء منهم الذين جمعوا بين العلم والعمل فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة⁽²⁾.

7 - الجزاء بجنس العمل على مستوى الوسائل:

إن أي تدبير أو فعل من العبد مهما بلغ في اتقانه ونسجه فإن الله هو القاهر فوق عباده لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذه الغاية القصوى في استشعار العبد بالمراقبة، ومن ثم الامتثال بالعبودية.

ومن الآيات الدالة على هذه المسألة:

- قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: 42].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [١٦] وَأَكِيدُ كَيْدًا [١٦] [الطارق: 15 . 16].

(1) جامع البيان للطبري (28 / 259).

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (2 / 221).

- وقال تعالى عن صالح . الطيِّلَةَ وقومه ثمود: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سِتْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: 48 . 51].

- وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجُمِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: 54 . 55].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِطُوا يَدَهُمْ عَلَيْكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: 30].

وسمي جزاء المكر مكرأ، وجزاء الكيد كيداً، تنبيهاً على أن الجزاء من جنس العمل⁽¹⁾.

ثالثاً: الجزاء بجنس العمل في الآخرة؛

كما أن سنة الجزاء بجنس العمل حاكمة في معاملة الله خلقه

(1) مفتاح دار السعادة لابن القيم (2 / 233).

في الحياة الدنيا، فهي كذلك في الآخرة، ومن ثم كانت سنة أساسية بين السنن، والتطبيقات القرآنية تترى في هذا المعنى، وتصل إلى حد التواتر، من حيث العدد، وإلى القطع من حيث المعنى والمراد من ذلك⁽¹⁾.

1. معاملة أهل الفضل بالفضل :

- قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ ﴿٦٦﴾ [الرَّحْمَنُ: 60] ، أي: هل ثواب خوف مقام الله ﷻ لمن خافه فأحسن في الدنيا عمله، وأطاع ربه إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربه بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا ما وصف في الآيات من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ ﴿٦٦﴾ [الرَّحْمَنُ: 46] ، إلى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿٥٨﴾ [الرَّحْمَنُ: 58]⁽²⁾.

- وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧١﴾ فلا تعلم نفس مآً أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ ﴿٧١﴾ [السجدة : 16 . 17].

قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم وأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب بشر⁽³⁾.

وفي الحديث القدسي: قال تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين

(1) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 250.

(2) جامع البيان للطبري (27 / 198).

(3) تفسير القرآن الكريم (3 / 260) روح المعاني (21 / 132).

ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِي أُولَئِ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَيَلِغُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَعَلَّ اللَّهُ لَهُ لُحْمٌ وَأَلَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: 22].

- وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُم مِّن أَرْزَاقِكُمْ وَأُزْلِقِكُمْ عُدُورًا لَّكُم فَاخْذُرْهُم وَإِن تَعَفُوا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: 14].

2- ترك الإنسان وإهماله في العذاب، كما أهمل الحق ولم

يتبعه:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٧٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٧٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ كَذَلِكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيهَا ءَكْذَابًا كُبُورًا (١٧٦) [طه: 124 . 126].

أخبر تعالى أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عمياً، فإن الجزاء أبدأ من جنس العمل⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

(1) مسلم في صحيحه (4 / 2174).

(2) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 256.

الْحِكْمَةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴿الأعراف: 51﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَّرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسَدِّقِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَكُمْ سِتَاتَ مَا عَمِلْتُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِكُ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَأَكُمْ أِنَّارٌ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿الجاثية: 32-34﴾ .

3 - التهكم بالكفار والمنافقين كما كانوا يتهكمون بالمؤمنين في الدنيا:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٢٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٤﴾ عَلَى الْأَرَءَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: 29 . 36].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ ثُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿الحديد: 13﴾﴾ .

والشاهد في الآية قوله: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فالظاهر من إسناد قيل بصيغة المجهول أن قائله غير المؤمنين المخاطبين وإنما هو من كلام الملائكة الساتقين للمنافقين⁽¹⁾.

(1) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 262.

وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تهكماً، إذ لا نور وراءهم، وإنما أرادوا إطماعهم ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم⁽¹⁾، ومما يؤيد أن هذا التخبط والحيرة الشديدة التي أصابت المنافقين في الآخرة هو جزاء لهم من جنس ما كانوا عليه في الدنيا، أنهم كانوا كذلك في الدنيا في قلق دائم وحيرة مستمرة، وتخبط متواصل لأنهم كانوا ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: 143]⁽²⁾.

رابعاً: الجزاء بجنس العمل بين العباد:

إن سنة الله في خلقه أن يكون جزاؤهم بجنس ما عملوه، وهذا أمر تكويني أقام الله عليه الدنيا والآخرة ليكون قانوناً حاكماً في المجازاة والمحاسبة وليس هذا فحسب، وإنما أراد الله ﷻ أن يكون هذا القانون وتلك السنة أمراً شرعياً تكليفاً، وقد أمر الله الناس بالتعامل به فيما بينهم، ليتحقق العدل والأمان في المجتمع بين الأفراد والجماعات والأمم، فأنزل الآيات التي توجب العمل بهذه القاعدة، وجعلها مستمرة في أبواب الشرع عامة في مسائله، وبين النبي ﷺ تلك السنة بأحسن بيان وأدق تطبيق، وبهذا يتبين أن الشرع والقدر قد تظاهرا على تقرير هذه السنة، وتلك القاعدة والتي هي من حكمة الله البالغة في خلقه⁽³⁾.

(1) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 263.

(2) المصدر نفسه، ص: 263.

(3) المصدر نفسه.

قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] ، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ فَأَعَدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 194] .

ومن الأمثلة في القرآن الكريم في هذا الباب ما يلي:

1. الآيات التي وردت في القصاص:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْقُوا بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ فَأَلْبِغْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّهِ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: 178 . 179] .

وفي هذا المعنى أيضاً يأتي قوله تعالى عن حكم القصاص في الكتب السماوية السابقة:

قال تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَقْتُلَ نَفْسًا بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45] .

وقد بينت السنة المطهرة تطبيق حد القصاص على الوجه الأكمل، وبما يحقق القاعدة التي تتحدث عنها، وبهذا يتبين لنا المصالح الجمة التي بنيت على مشروعية القصاص، وإقامته في المجتمع، ومن تلك المصالح زجر المعتدي ومن يحاول الاعتداء

ليرتدع قبل اقترافه عمله، ومنها جبر خاطر المعتدي عليه، ومنها التفادي من ترصد المعتدى عليهم للانتقام من المعتدين أو من أقوامهم، بإبطال الحكم بالقصاص يعطل هذه المصالح ويقوض بنيان المجتمع، ويشيع الفوضى في الدولة، وينخر في قواها المتمثلة في أفرادها وطوائفها⁽¹⁾.

2. حد الحرابة والإفساد:

وبهذا المعنى أيضاً جاء حد الحرابة والإفساد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: 33]، وهي شاهد لما نحن فيه على تفسير ابن عباس في رواية عطاء، وهو مذهب جمهور العلماء لأن كلمة ﴿أَوْ﴾ هنا ليست للتخيير، بل هي للتقسيم أو بمعنى آخر: لبيان أن الأحكام تختلف باختلاف الجنايات، فمن اقتصر على القتل قُتل، ومن قتل وأخذ المال، قُتل وُصِّلب، ومن اقتصر على أخذ المال قطع يديه ورجله من خلاف، ومن أخاف السبل ولم يأخذ المال نُفي من الأرض⁽²⁾.

3. من تطبيقات ذلك العصر النبوي:

ما علمنا إياه رسول الله ﷺ في كيفية مجازاة الناس بجنس أعمالهم والشاهد الصريح في ذلك ما قاله ﷺ عن أبي بكر ؓ: ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً

(1) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 266.

(2) التفسير الكبير للرازي (5 / 666)، السنن الإلهية، ص: 266.

يكافيه الله بها يوم القيامة⁽¹⁾، فأبو بكر رضي الله عنه بذل كل ما يملك . من مال ونفس وأهل وولد . لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عطاؤه بلا حدود، يستحق الجزاء من صاحب النعمة المطلقة، وولي كل منحة وجود، فرد النبي صلى الله عليه وسلم مكافأته الله تعالى، ليتفضل على أبي بكر بالإنعام والإكرام، وليكون الأصل في الجزاء أن يكون من جنس العمل⁽²⁾.

والمثال الثاني في عصر النبوة: أنه لما أسرت ابنة حاتم الطائي في أيدي المسلمين وراها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له: كان أبي يفك العاني، يحمي الذمار، ويقري الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة . فقال صلى الله عليه وسلم: «خلوا عنها، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق»⁽³⁾.

وفي رواية: فخلى سبيلها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فكساني رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملني، وأعطاني نفقة حتى خرجت إلى أخي عدي بالشام⁽⁴⁾.

لقد عاملها الرسول صلى الله عليه وسلم بجنس ما كان أبوها يعامل الناس رغم كفر أبيها، ليدلنا ذلك، على أن هذه القاعدة عامة ما لم تحرم أصلاً شرعياً، أو تعارض دليلاً قطعياً⁽⁵⁾.

(1) سنن الترمذي (5 / 609) حسن غريب من هذا الوجه.

(2) السنن الإلهية، مجدي عاشور، ص: 271.

(3) نوارد الأصول للحكيم الترمذي (2 / 314)، شعب الإيمان للبيهقي (6 / 24).

(4) السيرة النبوية (5 / 277) الطبقات الكبرى (1 / 322).

(5) السنن الإلهية، ص: 271.